كلمة الدكتور إلياس حلبي(*)

بدايةً لا بدَّ من التَّنويهِ بأهمِّيةِ هذه المبادرةِ التي يُطلقُها الأزهرُ الشريفُ ومجلسُ حكماءِ المسلمين؛ للبحث -كإخوةٍ- في كلِّ القضايا التي نواجهُها معًا، والهواجِسِ التي تؤرِّقُنا فرادىٰ وجماعاتٍ.

إنَّ ورقتي سوفَ تتمحورُ حولَ العملِ معًا لدرءِ التَّدخُّلاتِ الخارجيةِ، وهنا لا بُدَّ من التفكيرِ مَليًّا في مدلولِ العناصِرِ المكوِّنةِ لهذا العنوانِ من جهةِ مضامينِ الكلماتِ أو من جهةِ انعكاساتِها علىٰ أرضِ الواقعِ؛ فما معنىٰ كلمة «خارج»؟ وكيف يوصفُ التدخلُ؟ ما هي الأسسُ التي يجبُ أن يُبنىٰ عليها العملُ المشتركُ لمواجهةِ تدخلاتِ الخارجِ؟

في هذا العالمِ المعولمِ باتَ من الصعبِ علينا أن نحدِّدَ ماهيةَ الخارج، وأين هي الحدودُ الفاصلةُ بين ما نسميه داخلًا وما هو خارجٌ؟

إنَّ تحديدَ الخارجِ يستتبعُ -حُكمًا- رسمَ حدودٍ جغرافيَّةٍ وأُطُرٍ سياسيةٍ، وفي بعضِ الأحيانِ مفاهيمَ أيدلوجيَّةً، قد يكونُ من السَّهلِ القولُ إننا -أبناءَ هذا المشرقِ- يجمعنا تاريخٌ طويلٌ من العَيشِ معًا، تَشاركنا فيه كلُّنا مسيحيون ومسلمون، عربًا وعجمًا، في بناء حضارةٍ عربيَّةٍ إسلاميَّةٍ، شكَّلت -ولعدَّةِ قرونٍ- مساهمتَنا الإنسانيَّةَ في الحضارةِ العالميَّةِ ورقيِّ الفكرِ الإنسانيِّ.

لكنَّ هذا المشرقَ ليس كِيانًا جامدًا، بل عرفَ مدًّا وجزرًا، ومرَّ بمراحلَ تاريخيةٍ وتجاربَ سياسيةٍ كان آخرَها تجربةُ الدولةِ الوطنيَّةِ.

ليس المقامُ هنا أن نُقيِّمَ تجربةَ الدَّولةِ الوطنيَّةِ؛ بل المقصودُ من هذِه الإشارةِ هي لفتُ الانتباهِ إلى أنَّ مفهومَ الخارجِ قد يتقدَّمُ لِيَطالَ الدولةَ ككِيانٍ سياسيٍّ وقوميٍّ محددٍ.

إنَّ عصرَ العولمةِ قد تجاوزَ فكرةَ سيادةِ الدولةِ الوطنيةِ على أرضِها، وأسقطَ مَنعةَ حدودِها، خاصةً بما يتعلَّق بالأفكارِ والأيديولوجياتِ والمصالحِ، بل إنَّ فكرةَ الحدودِ نفسها تخضعُ لمساءلةٍ كُبرى- اليوم- إذا ما نظَرنا إلى العالمِ من حولِنا، وإن أخذت لبنان مثلًا قد ينطبقُ على دولٍ كثيرةٍ، فالمتَّحِدونَ في هذا البلدِ خارجُه أكثرُ بكثيرٍ ممَّن هم يعيشونَ فيه، ومنهم مَن حافظَ على هُويَّتِه اللبنانيةِ كرَمزٍ لانتمائِه لهذا البلدِ، ومنهم مَن يحفظُ هذا الانتماءَ في قلبه وضميرِه وعقلِه.

إنَّ هذا الواقعَ ينطبِقُ أيضًا على الجماعاتِ الدينيَّةِ مسيحيَّةً كانت أو إسلاميَّةً؛ فالمسيحيُّونَ المشرقِيونَ منتشرونَ اليومَ في كلِّ بِقاعِ الأرضِ، والمسلمونَ من أصولٍ عربيَّةٍ وغيرِ عربيَّةٍ باتوا يشكِّلونَ حُضورًا ووزنًا في كثيرٍ مِن الدولِ الأوروبِّية والأمريكتينِ وأستراليا.

إنَّ هذا الواقعَ يجعلُنا أمامَ تحدٍّ كبيرٍ؛ إذ ليسَ فقط مِن المستحيلِ أن نرسمَ حدودَ الخارجِ والداخلِ إنْ على الصعيدِ الوطنيِّ أو الدينيِّ، بل باتَ كلُّ ما يحصلُ في الشَّرقِ يؤثرُ على الغَربِ، وبالأولى ما يحصلُ في الخارجِ يؤثِّرُ على الدَّاخلِ، فنحنُ نؤثِّرُ ونتأثَّرُ بمسارِ الانتخاباتِ في كثيرٍ من دُولِ العالمِ، والانتخاباتُ الأخيرةُ في أمريكا وما سيليها في دولٍ أخرى خيرُ دليلٍ على هذا.

إنَّ ثورةَ الاتصالاتِ ووسائلِ التواصلِ الاجتماعيِّ أدَّت إلىٰ انهيارِ سيادةِ الدولةِ علىٰ رعاياها، وصارَ مفهومُ الهُويَّةِ تحتَ المجهرِ والدراسةِ، إذ إنَّ الإنسانَ باتَ يستطيعُ أن يحيا في دولةٍ افتراضيةٍ ويغيِّرَ اسمَه وجنسيَّتَه وحتىٰ جنسَه، وينسُجَ علاقاتٍ عابرةً لكلِّ الدولةِ والجماعاتِ الإثنيَّةِ وحتىٰ الدِّينية.

إنَّ تحييدَ ماهيَّةِ المصالحِ الوطنيَّةِ التي كانت بيدِ السُّلطةِ السِّياسيةِ حصرًا قد سقَطَت إلىٰ غيرِ رجعةٍ، وما فاقَمَ هذِه الظاهرةَ هو صعودُ الأصوليَّةِ الدينيةِ التي غالبًا ما حملت في ثناياها الدمارَ والقتلَ والإرهابَ، وقد أدَّت إلىٰ موجةٍ متجدِّدةٍ من التَّهجيرِ والتغيُّرِ الديموغرافي في داخلِ المشرقِ وفي دولِ الغربِ.

ولعل أكبرَ مثالٍ ما تعيشُه أوروبا اليوم أمامَ تدفُّقِ اللاجئينَ من سوريا وغيرِها من دُولِ النِّزاعِ في العالمِ؛ مما يُشكِّلُ شريانًا بشريًّا عابرًا للحدودِ والسدودِ يربطُ بين الداخلِ والخارجِ، وقد أدَّىٰ ذلك إلىٰ ردِّ فعلٍ وإلىٰ حركةٍ عكسيةٍ تمثَّلت بتقوقعِ الجماعاتِ في هُويَّاتٍ طائفيةٍ عشائريةٍ، يحكمها عاملُ الخوفِ من الآخَرِ والقلقِ علىٰ المصيرِ، وسَعَت لوضعِ حدودٍ جديدةٍ لتحميَ بها نفسَها من الجماعاتِ الأخرىٰ التي طالما تشاركَت معها حُلوَ العيشِ ومُرَّه لقرونٍ كثيرةٍ خَلَت، فلم نعُد نسمعُ كثيرًا عن تحصينِ الدَّاخلِ أمامَ تحدياتِ الخارجِ، بل بِتنا نرىٰ دعواتٍ وحتىٰ مشاريعَ انعزالٍ عِرقيٍّ وطائِفيٍّ ومذهبيٍّ بذريعةِ البحثِ عن الأمنِ والأمانِ.

لا بُدَّ من القَولِ بأنَّ الخارجَ – بأيِّ شكلٍ أو إطارٍ جُغرافيٍّ أو سِياسيٍّ غير مشرقيٍّ – يشكِّلُ تهديدًا لنا اليومَ أكثرَ من أيِّ وقتٍ مَضىٰ، لقد سقَطَتِ الأقنعةُ وظهرَ زَيفُ

ادِّعاء الإنسانيَّةِ واحترامِ حقوقِ الإنسانِ، وما يتعرضُ له الإخوةُ السوريُّونَ اللاجِئونَ في الغربِ هو مثالٌ صارخٌ وجارحٌ على هذه الحقبةِ المُرَّةِ.

إنَّ ما يحكمُ عَلاقاتِ الناسِ والدولِ والجماعاتِ هو المصلحةُ، واليوم يُضافُ إلى هذه المصلحةِ الخوفُ من الإرهابِ، ويضافُ إليه ما اصطلَحَ على تسميتِه بالإسلاموفوبيا، أي: رُهابِ الإسلامِ. هذا الرُّهابُ الذي تولَّد نتيجةَ تراكماتٍ للصُّورِ النَّمطيَّةِ التي أسَّس لها الاستشراقُ وغذَّتها وسائلُ الإعلامِ.

إنَّ هذا الخارجَ يُشكِّلُ خطرًا، وربَّما أَجرُؤُ على القولِ بأنَّ هذا الخطرَ قد يكونُ هو الذي دَفَعنا أن نلتقي اليوم لبحثِ هذه القضايا المهمَّةِ.

إنَّ صُعودَ الأيدولوجيَّاتِ المتطرِّفةِ الإلغائيةِ للآخَرِ هي التي حدَت بنا إلى السَّعي إلى إبرازِ هويَّتِنا المشرقيَّةِ المشتركةِ، والعودةِ إلى تراثِنا المشتركِ لتأصيلِ مفهومِ المواطنةِ، المهمُّ هو زوالُ هذا التَّهديدِ؛ لأنَّنا قد اعتَدنا أن نتَّحِدَ أمامَ الخارجِ ونتخاصمَ في الداخلِ، واليوم علينا ألا نعودَ إلى هذا؛ لأنَّ هذه قد تكونُ فرصتَنا الأخيرةَ.

إنَّ هذه العواملَ السَّلبيَّةَ، والخطرَ القادمَ من الخارجِ؛ هو أيضًا فرصةٌ لنا لكي نُعيدَ التَّفكيرَ بكثيرٍ من الأُطروحاتِ التي أفقَدتها الأيَّامُ والتجاربُ الأيدولوجيَّةُ الفاشلةُ الكثيرَ من مضامينِها.

إنَّها فرصتُنا الذَّهبيَّةُ؛ لكي نعيدَ تكوينَ مفَاهيم أساسيَّةٍ - كمفاهيمِ الهويَّةِ والحريَّةِ - على أسسٍ تكامليَّةٍ وتشاركيَّةٍ تُراعي التَّنوعَ؛ لنَنهلَ منه لنُشكِّلَ مُعطىً جديدًا لرِسالتِنا الإنسانيةِ الحضاريةِ إلى عالمِ اليومِ.

فالحريَّةُ هي العمودُ الفِقريُّ لهذا المشروعِ، الحريَّةُ هي في العقلِ والقلبِ قبلَ أن تكونَ في الدَّساتيرِ والقوانينِ، إنَّها حريَّةُ الاختيارِ على صعيدِ التعليمِ والعملِ والزواجِ وصولًا إلى حريةِ أن تُحبَّ اللهَّ وتعبدَه لذاتِه وليسَ خوفًا أو طمعًا، وهذه الحريةُ يؤطِّرُ لها في المجالاتِ السياسيَّةِ والمدنيَّةِ حتى الدينيةِ، إنَّها حريةُ الانتماءِ إلى مجتمعٍ ودولةٍ وطنيةٍ ومَشرقٍ أصيلٍ.

إنَّ مواجهةَ تهديداتِ الخارجِ تكونُ -أوَّلًا- بالخروجِ من التعميماتِ التي غالبًا ما تتحولُ إلى تعمياتٍ للحقائقِ، كالقولِ بأنَّ الغربَ مسيحيٌّ والمشرِقَ إسلاميٌّ، أو استسهالِ إطلاقِ تعابيرَ كأقليَّاتٍ وأغلبياتٍ وذمياتٍ وطهرياتٍ من كلِّ المشاربِ والألوانِ.

العلاجُ يكون -دومًا- بتسميةِ الأشياء بأسمائها على بشاعةِ بعضِها، والبعدِ عن الحفرِ في ثنايا التاريخِ أو الهروبِ إلى مجهولِ المستقبلِ.

إنَّ التبريرَ قد يكونُ أفظعَ مِن الفعلِ أحيانًا؛ لذا الوضوحُ والشفافيَّةُ واللُّغةُ الواحدةُ هي التي تبني المناعةَ أمامَ الخارجِ بعدَ أن سقطَت كلُّ الحدودِ والسدودِ.

درءُ مخاطرِ الخارجِ يكونُ -أوَّلًا- باكتسابِ المناعةِ.. إنها فرصتُنا اليوم.. نحنُ الذين نتجرَّعُ مرارةَ التَّشرذمِ والاقتتالِ باسمِ الدِّينِ، فعلينا أن ننتهزَها سانحةً

لإعادةِ تشكيلِ عقدِنا الإنسانيِّ المشترَكِ على قاعدةِ الحريةِ والعدالةِ للجميعِ دون استثناءٍ، «النَّاسُ كلُّهم عِيالُ اللهِ»، واللهُ هو خالقُ السماءِ والأرضِ ومَن عليها وما عليها، فمِن هنا لا بُدَّ أن يكونَ تأسيسُ هذه المناعةِ مبنيًّا على مخاضٍ فكريٍّ يرافقُه تكافلٌ وتضامنٌ إنسانيٌّ عابرٌ للمذاهبِ والطَّوائفِ والأعراقِ، جامعُه الوحيدُ الإرادةُ الطَّيبةُ وطاعةُ اللهِ مصدرُ كلِّ خيرٍ وجمالٍ وبُنيانٍ.

إنَّ هذه المناعةَ تُصبحُ مناعةً مكتسبةً عندما تؤصِّلُ في الحياةِ اليوميَّةِ عَيشًا ونِضالًا مشتركًا من أجل نُصرةِ المظلومِ -كلِّ مظلومٍ وأيِّ مظلومٍ- وهذه المناعةُ إذا اقتَرنَت بخبرةٍ صادقةٍ للعَيشِ المشتركِ سيتولَّدُ عنها مناعةٌ أمامَ خطابِ الغُلُوِّ والتطرُّفِ الذي لطَالَما سعى إلى إلغاءِ الإنسانِ بحجَّةِ الطُهريَّةِ وانتقائيَّةِ الخطابِ والتفسيرِ والتأويلِ.

إنَّ الفهمَ المشتركَ لماهيَّةِ الدَّاخلِ والخارجِ وسقوطِ الحدودِ قد يتحوَّلُ فرصةً لنا إذا أحسنَّا استخدامَها؛ لتكونَ مساهمتُنا إلى الإنسانيَّةِ التي تتصارعُ اليوم لتجِدَ إجاباتٍ عمَّا نحن خَبَرناه وعِشناه لقرونٍ طوالٍ، وهو كيف يُدارُ التَّنوُّعُ ولا تسقطُ الهُويَّةُ؟

الحلُّ لن يكونَ بالشِّعاراتِ أو الخطاباتِ، بل بالحوارِ الجديِّ والصريحِ، الذي يضعُ المصالحَ المشترَكةَ نُصبَ أعيننا، ولا بدَّ من إجراءِ مراجعاتٍ للكثيرِ من المسلَّماتِ، فدرءُ مخاطرِ الخارجِ يكون ببناءِ المناعةِ وبالاستيعابِ والانفتاحِ بدلَ الحرَكةِ الاختزاليَّةِ التي تضرِبُ في بنيتِنا الفكريَّةِ والدينيَّةِ في المشرقِ.

فكلُّ الأديانِ تُختزَلُ في دينٍ واحدٍ – وهو دينُ صاحبِه – وكلُّ دينٍ يُختزلُ بمذهبِ معتنِقِه، لقد طالَ الاختزالُ كلَّ عواملِ الفكرِ والدينِ والسلوكِ والعلائقِ.

إنَّ هذه الاختزاليَّةَ وأحاديَّةَ الرؤيةِ لا تخلو أبدًا من الانتقائيَّةِ التي مقياسُها الوحيدُ المصلحةُ الشخصيَّةُ أو الجمعيَّةُ على حسابِ شركاءِ الأرضِ والمصيرِ.

لا بُدَّ من التنويهِ أخيرًا أنَّنا أمامَ جرحِ فلسطينَ النازفِ مخترَقونَ من الداخِلِ، ولا بدَّ لهذا الظُّلمِ المتنامي أن ينتهيَ كي يسودَ العدلُ والسلامُ في أرضِ العدلِ والسلامِ.

كما لا بُدَّ لنا من أن نقدِّمَ مقارباتٍ فكريةً جديدةً بعيدةً عن الأُطُرِ الجامدةِ، ونُعيدَ اكتشافَ الإرثِ الثَّقافيِّ والدِّينيِّ في العالمِ العربيِّ في جدَليَّتِه مع الغربِ، وبعيدًا عن قوالبِ الاستشراقِ أو ردِّ فعلِ الهُويَّةِ المأزومةِ.

إنَّ الحضورَ المسيحيَّ في الشرقِ كان بوابةَ العبورِ من الغربِ إلى شرقِنا، ومن شرقِنا إلى الغربِ، وهو اليوم مُهدَّدٌ بالحروبِ الظَّلاميَّةِ، ولكنَّ هذا التهديدَ يمكنُ أيضًا أن يتحوَّلَ إلى فرصةٍ إذا ما أُسِّسَ الحضورُ المسيحيُّ على قاعدةٍ صُلبةٍ صادقةٍ تجعلُ منه رافعةً للهويَّةِ المشرقيَّةِ ونصيرًا لقضاياها، وهذا يدفعُها بالتَّكافلِ والتَّضامنِ مع أبناءِ هذِه الأرضِ إلى ولُوجِ القضايا الشَّائكةِ والمصيريَّةِ ذاتِ الأبعادِ الكِيانيةِ التي لا تحتملُ لبسًا أو التفاتًا.